

الأمثل في تفسير كتاب المنزل

[230] الحديث، أنَّهُ تعبير ينسجم مع أدق النظريات العلمية الحديثة عن تكون العالم، لقد أظهرت دراسات العلماء أنَّ العالم الكبير (الكون) والعالم الصغير (المنظومة الشمسية) كانت كلها كتلة واحدة تشققت على أثر الانفجارات المتتالية، وتكونت المجرات والمنظومات والكواكب، وفي الآية (30) من سورة الأنبياء بيان أوضح لهذا الأمر: (أو لم ير الذين كفروا أنَّ السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما). والنقطة الأخرى التي ينبغي ألا نغفل عنها في هذه الآية هو أنَّها تقتصر على تأكيد إتيان الإنسان بالطعام مخلوقاته ورزقهم، ولعل ذلك إشارة إلى أنَّ أقوى حاجات الإنسان في حياته المادية هي حاجته إلى "لقمة العيش" كما يقال، وهذه اللقمة هي التي تحمل الناس على الخضوع لأصحاب المال والقوَّة، وقد يصل خضوعهم لأولئك حدَّ العبودية، ففي هذا يقرر القرآن رزق الناس بيد الله لا بيد هؤلاء ولا بيد الأصنام، فأصحاب المال والقوَّة هم أنفسهم محتاجون إلى الطعام، وأنَّ الله هو وحده الذي يطعم الناس ولا يحتاج إلى طعام. وفي آيات أخرى نرى القرآن يؤكد ملكية الله ورأبقتة بإنزال الأمطار وإنبات النباتات، وذلك لكي يزيل من أذهان البشر كلياً فكرة اعتمادهم على مخلوقات مثلهم. ثمَّ للردِّ على أولئك المشركين الذين كانوا يدعون رسول الله إلى الإلزام إليهم، يؤكد القرآن على ضرورة رفض دعوة هؤلاء إنطلاقاً من مبدأ نهى الوحي الإلهي عن ذلك، إضافة إلى نهى العقل: (قل إنَّي أُمرت أن أكون أوَّل من أسلم ولا تكونن من المشركين)(1). لا شك أنَّ أنبياء الله والصالحين من أقوامهم سبقوا النبي الخاتم في _____ 1 - جملة (إنَّي أُمرت ...) من قبيل الخطاب غير المباشر، وجملة "ولا تكونن" خطاب مباشر، ولعل هذا الإنقال يقصد به القول بأنَّ الإلزام بتعداد عن الشرك واستنكاره أهم بكثير من أن يكون المرء أول المسلمين، ولذا جاء موضوع تجنب الشرك في خطاب مباشر ومؤكَّد بنون التوكيد الثقيلة.